

كَمَا تَرَاهُ غَشْوَمُ
وَالْعَقْلُ عَيْبٌ وَلَوْ
خَوَّلَ اللَّهُ نَامَ يَحْ

فالتحاقق إذا سلوك مقصود، بدافع التكسب، بعد أن أدرك الشاعر أن العقل صار غُلاً في رقبة صاحبه، وأن الحمق سيفتح له أبواب الرزق التي سُدَّت في وجهه وفي وجوه العقلاء والفضلاء، فسلك هذا المسلك، مضحياً بكرامته وعفته، مضحكاً الناس عليه، مُنزلاً نفسه أسوأ منزلة.

وفي العصر المملوكي (648-923هـ) زادت حدة التحامق، فبعد أن كان شعراء التحامق الذين أشرنا إليهم في العصر العباسي من الشعراء الصغار، أو ممن لم يصيبوا شهرة كبيرة صار كثير من الشعراء المتحامين في العصر المملوكي من كبار شعراء عصرهم، بشهادة كل من ترجم لهم أو تحدث عن أشعارهم، مما يعني أهمية هذا اللون من النظم ورواجه في العصر المملوكي حتى صار ظاهرة تستدعي الدرس والتفسير. فما الأسباب التي هيأت لذلك؟ من الصعب أن نرجع هذه الظاهرة إلى سبب واحد، بل لا بد من اجتماع عدد من الأسباب لتفسيرها. ويمكن الإشارة إلى أهمها، وهي:

1- كثرة الحروب الخارجية (ضد السروم والصليبيين والمغول) والفتن الداخلية (ثورات الخارجين على سلطة الخلافة، والطامعين فيها من الأمراء والنواب وغيرهم، وثورات الأعراب..)، وما نتج عن ذلك من اختلال الأمن، وانعدام الاستقرار، وانتشار الفقر، والخوف من الحاضر والمستقبل معاً، فأتجه الناس وجهات مختلفة؛ فمنهم من تزهد وتصوف، ومنهم من تماجن وتحامق، ومنهم من امتنن للصوصية والسرقة والاحتتيال وقطع الطريق على الناس، ومنهم من اعتزل الدنيا والناس، ومنهم من هجر الأوطان..

2- فساد السياسة والإدارة، وتدني مستوى الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية، وكثرة ما أصاب البلاد من كوارث طبيعية وأوبئة، فقد تسلط المماليك على الحكم، وبناتوا هم المتصرفين في مختلف أموره. ومن المعلوم أن المماليك- ومعظمهم من الأتراك- لم تكن لديهم خبرة كافية في شؤون الحكم والإدارة، بل كانت لهم دراية تامة في شؤون الحرب. ومما زاد الطين بلة تولي كثير منهم السلطة، وهم ضعاف صغار السن، حتى بلغ عدد السلاطين الصغار في العصر المملوكي "سبعة عشر طفلاً، منهم ستة أطفال تتراوح أعمارهم بين الثانية والعاشرة من العمر، وأحد عشر طفلاً بين العاشرة والسادسة عشرة، وامتدت سنوات حكمهم جميعاً قرابة نصف قرن"(7).

فكيف سيدبر هؤلاء الصغار شؤون البلاد وهم عاجزون عن تدبير شؤونهم هم؟ حتى إن بعضهم لم يكن قادراً على التحكم في أمر طعامه، كالسلطان الناصر محمد بن قلاوون أعظم سلاطين المماليك؛ إذ منع عنه أمرؤه- عندما كان صغيراً- بعض الأطعمة سنة 698هـ(8). لذا كان من الطبيعي أن يتحكم فيهم الأمراء والقواد والنواب والنساء، ويسيروهم كما يشاؤون. كما أن كثيراً من الحكام

وصل إلى الحكم عن طريق الاغتيالات والدسائس والمؤامرات، فتحولت عصورهم إلى ظلمة ودم وقمع.

ولم يكن وزراء أولئك الحكام وأمرؤهم وولاتهم أحسن حالاً منهم، بل كانوا امتداداً لهم، ينيهون ويسلبون، متخذين من مناصبهم ستاراً يحتمون به. وكثير من هؤلاء لم يكن لهم خيرة كافية في الإدارة والسياسة، بل إن كثيراً منهم كان أمياً، ومنهم من انتقل إلى منصبه من حرفته؛ فكثر الوزراء والولاة ممن كانوا يعملون طباًخين ونجارين ولحامين وفلاحين ومهرجين وقوادين وحلاقين وحلوانية(9). وقد توصل هؤلاء إلى مناصبهم عن طريق الرشوة والمال والقتل والدسائس. ولما كان بقاؤهم في مناصبهم مرهوناً بما يدفعونه للسلطان وغيره من مال، وما يقدمونه له من ولاء غير مشروع كان لا بد لهم من أن يظلموا الناس ليستخرجوا منهم المال الذي سيعينهم في أمورهم تلك، ولو كان ذلك على حساب العدل والدين والأخلاق.

وكان الشعراء ضمير الأمة الحي، يستشعرون المصيبة قبل وقوعها، ويبصرون مواطن النقص والخطر والشر، وينبهون عليها، منتقدين ساخرين(10). وقد سخر الشعراء والعامّة من هؤلاء الفاسدين، وأطلقوا عليهم ألقاباً طريفة، تفصح عن ضيق الناس بهم؛ فقد أطلقوا لقب (القول المقشّر) على الأمير (قطلوغغا الفخري) مقدّم الجيوش الشامية، ولقب (فأر السقوف) عليّ محتسب مصر الشريف ناصر الدين، لأنه كان يستزق السمع في الأسواق، ويلحق الباعة ظلماً، ولقب (حمص أخضر) على نائب الشام (طشتمر البذري)، يشيرون بذلك إلى ما كانت عليه نفسه من تقلب وتلون. ومن المعلوم أن الحمص الأخضر له قلبان!(11)

لذا كان الناس يظهرون فرحتهم وشماتتهم بعزل هؤلاء الظالمين أو معاقبتهم، كما حدث للأمير علم الدين سنجر الشجاع(693هـ) وزير الناصر محمد بن قلاوون؛ فقد كان هذا الوزير سيئ السيرة، كثير الظلم، طموحاً "حدثه نفسه بما فوق الوزارة، فكان في ذلك حنقه وقتله"(12). وقد فرح الناس بذلك؛ إذ حُمِلَ رأسه وطيف به على أبواب الناس ولا سيما الأقباط، فتسابقوا في لطمه باليد والحذاء، حتى "بلغت اللطمة على وجهه بالمداس نصقاً، والبولّة عليه درهما"(13). وقيل في الشماتة به شعر كثير(14).

وكان الناس يرجون خيراً في القادم الجديد من هؤلاء الحكام، فلعله يكون أفضل من القديم الراحل، لكن آمالهم سرعان ما تذهب أدراج الرياح، وإذا الظالم هو الظالم، ودولة الظلم هي دولة الظلم، كما يقول أبو شامة المقدسي (665هـ)(15):

كلما قلت دولة الحاكم الجا بر زالت قامت علينا أخرى

وقد تضرر الفلاحون كثيراً من سوء إدارة البلاد، ومن كثرة الكوارث الطبيعية - من فيضانات وزلازل وقلة أمطار... - وما نتج عنها من أوبئة وغلاء ومجاعات، فهجروا الريف إلى المدن، لعلهم يجدون ما يسد الرمق، فأهملت الأرض، وقلت الأيدي العاملة في الريف، وزاد عدد العاطلين عن العمل في المدن، فكثر التسول والتشرد واللصوصية. وهجر آخرون البلاد إلى غيرها لشدة فقرهم،

وللبحث عن مصدر جديد للرزق. وقد وصف هذا الوضع أبو الطيب السبتي، وهو أديب فاضل، ترك القاهرة بعد الغلاء الشديد الذي حل بها عام 695هـ قائلاً: "لو وجدت بالقاهرة رغيفين ما خرجت منها" (16)، في حين تحول كثير من هؤلاء المشردين والفلاحين إلى السرقة وقطع الطريق، مما دعا الحكومة "إلى المناداة بين حين وآخر بخروج أهل الريف من القاهرة، وعودتهم إلى بلادهم. ولكن لم يُعمل بمثل هذه الأوامر" (17). وفي هذه المجاعات أكل الناس كل شيء، مما يؤكل ومما لا يؤكل؛ فأكلوا الميتة والكلاب والقطط، بل إن بعضهم أكل بعضاً!! (18) مما جعل عدد سكان مصر في العصر المملوكي في تناقص مستمر، "من ثمانية ملايين إلى قرابة ثلاثة ملايين" (19) في نهاية حكم المماليك.

وانتشر الفساد في مختلف إدارات البلاد، وكثرت الرشا، وصار كثير من الوظائف الكبيرة والصغيرة مرهوناً بما يدفعه المرء من رشا في سبيلها؛ ففي سنة 746هـ "استهر أخذ البراطيل للسلطان، فقصدته كل أحد لطلب الإقطاعات والرزق والرواتب" (20). وقد وقفت الدولة موقفاً غريباً من هذه الرشا، فلم تمنعها، بل عملت على تنظيمها، فأحدثت ديواناً لها سمته "ديوان البذل أي ديوان البراطيل" (21)، مهمته تنظيم الرشوة وتوصيلها إلى أصحابها؛ إذ يأتي الطامع في المنصب إلى هذا الديوان، ويعرض مسألته، وينتظر ليعلم مبلغ المال الذي يجب أن يدفعه لقاء ذلك المنصب.

وامتد سيل الرشا حتى وصل القضاء، وكثر تعيين القضاة عن طريقها، وتسابق بعض القضاة في دفع الرشا؛ ففي سنة 911هـ تولى القاضي جمال الدين القلقشندي قضاء الشافعية بمصر "وكان قد سعى فيها بثلاثة آلاف دينار، ثم سعى عليه ابن النقيب بخمسة آلاف دينار!" (22). وقد تحدث قاضٍ شاعر هو ابن الوردي (عمر بن مظفر 749هـ) عن فساد القضاء في زمانه من خلال عدد من القضاة، سمى أحدهم، وأسهب في الحديث عنه - في مقامة طويلة - وعن وسائله غير المشروعة في الوصول إلى منصبه، وفي ظلمه للناس (23). وهذا يعني أن على صاحب المنصب أن يجمع ما يستطيع من مال ليسترد ما كان قد دفعه من رشوة لتولي ذلك المنصب، أو ليضمن بقاءه فيه، لأن الطامعين كثيرين، وقد يأتي من يدفع أكثر منه فيأخذ منه منصبه (24). ومن هنا كثر تغيير الولاة والقضاة والحكام والوزراء كثرة لافتة للنظر، وبعضهم لم يمضِ إلا شهراً في ولايته أو يوماً واحداً (25)، مما أدى إلى انتشار الظلم وضياع الحق والعدل. صحيح أن عدداً من القضاة ظل متمسكاً بدينه وأخلاقه، فلم يسع خلف القضاء لفساد الحكام، وخشيته من ألا يقيم حدود الله، ففضل لزوم بيته على أن يخسر دينه، لكن هؤلاء كانوا قلة، ولقوا من بعض الحكام الفاسدين أسوأ معاملة؛ فقد "ضُرب جماعة من السلف على أن يُلوا القضاء، فأبوا، وسُمّرَ بابُ علي بن خيران مدة. وما ذاك إلا لأنهم يخشون ألا يقيموها فيه الحق لفساد الزمان" (26)، ومنهم من أودع السجن لجهره بكلمة الحق أمام بعض الحكام الفاسدين (27).

ومما زاد الأمور سوءاً تقاعس كثير من الحكام عن معالجة ما يصيب البلاد من كوارث وأوبئة وغلاء، فلم يفكروا كثيراً في إيجاد طرائق نافعة تحد من جبروت الطبيعة، وتتف عائقاً أمام النكسات

الاقتصادية المتتالية، بل انحصرت أفعالهم في دعوة الناس إلى التضرع لله كي يرفع عنهم ما أصابهم، أو في توزيع بعضهم على الوزراء والأمراء لإطعامهم، أو في تحميل أهل الذمة ما أصاب المسلمين من مصائب بسبب فساد أهل الذمة وشرهم للخمر.. بل إن كثيراً من الرؤساء والحكام كانوا يهربون من البلاد إلى الأرياف البعيدة منتظرين جلاء الغمة، فيفسحون المجال بذلك للعامة وللصوص لإحداث الشغب والفوضى والسرقة، فإذا هدأت الأمور "رجع أكثر الرؤساء إلى القاهرة" (28)، وكانهم غير معنيين بما يجري للناس.

3- تدني منزلة الشعر والشعراء: فقد ابتعد كثير من الحكام المماليك عن الشعراء لانشغالهم بأمور الدفاع عن البلاد ضد الصليبيين والمغول، أو لانصرافهم إلى القضاء على الفتن السياسية التي كانت تحدث في قصورهم، وهي فتن كان يقودها أمراء ووزراء طامعون في الحكم، ضربوا صفحا عن مصالح البلاد والعباد، منصرفين إلى الدسائس والمؤامرات، أو لعجمة كثير من الحكام المماليك، ولا سيما الذين جلبوا إلى السلطنة كباراً كالسلطان قلاوون مثلاً، فقد كان "قليل الكلام بالعربي" (29)، وكان الأمير قجماس - وهو أمير مئة، ومقدم ألف بالديار المصرية - "لا يحسن يتلفظ بالشهادتين، فكان مباشرو إقطاعه يدخلون إليه مع أرباب وظائفه فيجدون الفقيه يعلمه الشهادة وقراءة الفاتحة، وهو كالتيس بين يدي الفقيه" (30). وقد وجد أمثال قلاوون اللغة العربية صعبة عليهم، فأقبلوا على الشعراء العاميين، لقرب لغتهم من أفهامهم. ومن هؤلاء السلاطين من كان يأنف الاجتماع بالشعراء، كالظاهر بيبرس مثلاً؛ إذ رفض أن يجتمع بالشاعر البوصيري (محمد بن سعيد 695هـ) قائلاً: "لو كنت أجتمع بشاعر لاجتمعت به" (31)، على الرغم من شهرة البوصيري، ومن امتداحه لبيبرس نفسه بقصيدة طويلة ذكر فيها ورعه وحرصه على الدين من خلال تعقبه لشاربي الخمر.

وهناك خبر مهم يدل على تدني منزلة الشعر والشعراء في العصر المملوكي تدنياً خطيراً؛ إذ كان الشعراء يأخذون أعطياتهم من مال الصدقات، وكان الشعر وجّة من وجوه البر، وكان الشاعر متسول أو ممن يستحق الصدقة! وقد أوكّل قاضي مصر بذلك، فكان يوقف الصدقات أو يرسلها على هواه؛ فقد أمر بقطع أرزاق الشعراء في إحدى السنوات، واستثنى من بينهم الشاعر أبا الحسين الجزار (679هـ)، فما كان من الشاعر ابن توكّل المصري (685هـ) إلا أن هجاه وهجا أبا الحسين الجزار، جاعلاً من القاضي تيساً. ومن المعلوم أن التيس يخاف الجزار (32):

بَقَطَ رِزْقَ الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ

تَقَدَّمَ الْقَاضِي لِنَوَابِهِ

فَاعْجَبَ لِلطَّفِ التَّيْسِ بِالْجَارِ

وَوَقَّعَ الْجَزَارَ مِنْ بَيْنِهِمْ

وقد صور الشاعر ابن نباتة المصري (محمد بن محمد 768هـ) حال الشعراء في زمانه من خلال الكلام على معاناته؛ فهو يسعى بين أبواب الممدوحين، حتى خف طحاله لطول السعي، ولكن بلا طائل. فما نفع الغزل والعشق والمديح، والشاعر جائع بلا عمل أو كسب؟ (33)

يا سائلي بدمشق عن أحوالي
ودع استماع تغزلي وتغزلي
طول النهار لباب ذا من باب ذا
لا حظ لي في ذلك إلا أنه

قف واستمع عن سيرة البطال
ماذا زمان العشق والأغزال
أسعى لغمر أبيك سغي ظلال
قد خف من طول المسير طحالي

ومما ساعد على تدني الشعر كثرة الشعراء، وجريان الشعر على كل لسان، مما قلل عدد الممدوحين من غير الشعراء. فمن سيمدح الشاعر؟ وإنه لأمر مضحك مُبْك في أن يُنَاب الشاعر على مدحيه بمدح بدل العطاء، فتزد بضاعته إليه، كما حصل للشاعر سراج الدين الوراق (695 هـ) (34):

وَعَوَّضَنِي عَلَى شِعْرِي بِشِعْرِ
وَلَسْتُ أَلُومُهُ فِيمَا أَتَاهُ

وَجَازَى بِالْمُحَالِ عَلَى الْمَحَالِ
لِعَادَتِهِ قَدِيمًا بِالْبَدَالِ

ومن ها هنا لم يعد الشعر من الأشياء التي يفخر المرء بها، بعد أن كانت القبائل العربية في الماضي تأتي إلى القبيلة التي نبغ فيها شاعر لتهنئها بشاعرها. وقد عيّر الشاعر مجاهد بن سليمان الخياط (672هـ) الشاعر الجزار بالشعر، ونهاه عن الافتخار به، قائلاً له (35):

أَبَا الْحَسَنِ تَأْدَبُ مَا الْفَخْرُ بِالْشَّعْرِ فَخْرُ

ومن الطبيعي- والحال هذه- أن يُغرض الناس عن قول الشعر، وأن يوصي المتقدم المتأخر، والوالدُ الولدَ بتركه، لأنه يريق ماء وجه صاحبه على أبواب الممدوحين، ويحط من قدره بلا طائل، فلولاً علم الأب (ابن الوردي) لحط الشعر من قدره كما يقول(36):

بُنِيَ إِيَّاكَ وَنَظَّمَ الشُّعْرَ
وَاللَّهُ لَوْلَا شُهرَتِي وَذِكْرِي
فَاتَهُ بِالْعِلْمِ يُزْرِي
بِالْعِلْمِ كَانَ الشُّعْرُ حَطَّ قَذْرِي

ونتيجة لكل ذلك اتجه كثير من الشعراء إلى الحرف اليدوية ليكسبوا منها ما يقيم أودهم، ويصون ماء وجوههم من الذل والهوان، فبرزت طائفة كبيرة من الشعراء عرفوا بأصحاب الحرف، كان منهم الشاعر أبو الحسين (الجزار)، والشاعر سراج الدين (الوراق)، والشاعر نصير الدين (الحمامي)، والشاعر ابن دانيال (الكحل).. وقد امتدح هؤلاء الشعراء حرفهم كثيراً، وبينوا فضلها عليهم؛ فهي التي صانت وجوههم من التذلل للممدوحين اللئام، وصارت هذه الحرف أفضل عندهم من حرفة الشعر، كما يقول أبو الحسين الجزار ممتدحاً حرفته التي جعلته صاحب فضل على الكلاب. بعد أن كان يتذلل بشعره للممدوحين الذين صاروا في نظره كالكلاب(37):

لَا تَعْبَثْ بِصُنْعَةِ الْقَصَابِ
كَانَ فَضْلِي عَلَى الْكِلَابِ قَمْذُ صِرْ

فَهِيَ أَذْكَى مِنْ عَنَبِ الْآدَابِ
تُأْدِي سُبَا رَجَوْتُ فَضْلَ الْكِلَابِ

خارجة عن إطار هذا البحث- أكثر من غيره من الشعوب، فمعظم الشعراء المتحامين في العصر المملوكي كان من مصر.

وقد نتج عن كل ما تقدم ذكره من أسباب بروز التحامق في الشعر العربي في العصر المملوكي اختلال كبير في القيم والمفاهيم، فلم تعد قيم الشرف والعفة والصدق والخلق الكريم.. قادرة على الصمود في وجه مخلفات الظلم والاستبداد كالفقر والتشرد والمرض والخوف.. ومن تمسك بتلك القيم النبيلة عاش حياة لا تختلف كثيراً عن حياة الأموات والمضطهدين، لأن ميزان المجتمع أصابه اختلال كبير، وصارت كفته لا ترجح إلا لذوي المال والسلطان، حتى لو أخطؤوا. كما حصل اختلاف واسع في السلوك ووجهات النظر بين الناس ولا سيما الشعراء تجاه تردي الأحوال تلك؛ فمنهم من كره حياته ما دامت على هذه الوتيرة من الفقر والإهمال وسوء الحال، على الرغم من علو همته وذبوع فضله، وتمنى أن يكون جاهلاً، لأن تعقله لم يجلب له إلا التعب والهم، كما يقول قاضي القضاة الشافعية بمصر ابن دقيق العيد (محمد بن علي 702هـ) (40):

سحابُ فكري لا يزال هامياً وليل همي لا أراه راحلاً
قد أتعبتني همي وفطنتني فليتني كنت مهيناً جاهلاً

واستصوب آخرون خصالاً أخلاقية ذميمة كالنفاق والرياء، بدلاً من الصدق والاستقامة. بل دافعوا عن تلك الخصال، والتمسوا لها الحجج، ورأوا أنها خصال لا يعاب عليها المرء في زمان السوء، بل لا بد منها فيه. وبذا انعكست القيم، وصار الخلق الممدوح مذموماً، والمذموم ممدوحاً، كما يقول الشاعر محمد بن رضوان المعروف بالشريف الناسخ (671هـ) يدافع عن النفاق (41):

يا من يعيب تلوي ما في التلوي ما يعاب
إن السمام إذا تلوو ون وجهها رجي السحاب

ولزم آخرون بيوتهم بعد أن اعتزلوا الناس، لأنهم لم يروا فيهم إلا النفاق والكذب، فلعل الله يحدث بعد ذلك أمراً، كما يقول محمد بن علي الحلبي (660هـ) (42):

ولما رأيت الناس أصبح ودُّهم نفاقاً ومننا ما تعدّيت منزلي
ونزّهت نفسي ثم قلت لها اصبري ألا كل شيء لا محالة يتجلي

وتزهد بعض الناس ولبسوا الصوف الخشن والملابس البالية اضطراراً لا اختياراً بسبب الفقر الشديد، وكأنهم من فقراء الصوفية، لكن شيخهم لم يكن فقيراً مثلاً، بل كان القائد المغولي (غازان) الذي دخل دمشق فاتحاً عام 698هـ، فزاد بظلمه في فقر الناس وتشردهم (43):

ما لبست الصوف من عبث لا ولا الخلق أن مجأتها
إنه زي لمن هو من فقراء الشيخ غازانها

ودعا عدد من الشعراء إلى العمل، وإلى ترك قول الشعر. صحيح أن قول الشعر شيء هين يريح صاحبه من بذل الجهد، لكنه لا يجلب له مع تلك الراحة إلا الذل والهوان (44):

دَعِ الْهُوَيْنَى وَانْتَصِبْ وَاکْتَسِبْ وَأَكْذَحْ فَنَفْسُ الْمَرْءِ كَذَاحَةٌ
وَكُنْ عَنِ الرَّاحَةِ فِي مَغْزِلٍ فَالْصَّفْعُ مَوْجُودٌ مَعَ الرَّاحَةِ
فَزْتُ بِالْجَهْلِ مِثْلًا فَازَ بِالْحِلْمِ وَفِعْلُ الصَّنَائِعِ الْبَانِيَّاسِي

ومنهم من ذم العقل ودعا إلى التحامق والجهل، ففيهما الرزق والفوز، كقول أبي الحسين الجزار (45):

ورأى ابن دانيال (710هـ) أن العقل سبب كل نقص أصاب صاحبه، وأنه قيد في رقبته، وكان الرزق للحمقى والجهلة، وليس للعقلاء نصيب فيه، فعاش حياته مستخفاً بالعقل، ساخراً من نفسه ومن كل شيء حوله (46):

قَدْ عَقَلْنَا وَالْعَقْلُ أَيُّ وَثَاقٍ وَصَبَرْنَا وَالصَّبْرُ مُرٌّ الْمَذَاقِ
كُلُّ مَنْ كَانَ فَاضِلًا كَانَ مِثْلِي فَاضِلًا عِنْدَ قِسْمَةِ الْأَرْزَاقِ

ودعا إلى تفضيل صحبة الحيوانات - ولا سيما الكلاب - على صحبة الناس، لأنها وفية ولا تغدر بصاحبها، وتدافع عنه وقت الشدة، وتحرسه من أعدائه إن نام، على عكس بعض الناس الذين صاروا غادرين، لا يؤمن جانبهم (47):

تَعَلَّمْتُ أَخْلَاقَ هَذِي الْكِلَابِ وَمَنْ لِي بِأَمْثَالِهَا فِي صِاحِبِي
وَفَاءٌ وَصَبْرٌ وَحِفْظُ الدِّمَامِ وَذَبٌّ عَنِ الْخِيَلِ عِنْدَ الضُّرَابِ
وَتَسْنَهُرُ إِنْ نِمْتُ فِي قَفْرَةٍ وَتَحْرُسُنِي مِنْ ضَوَارِي الذَّنَابِ
كِلَابٌ وَلَكِنَّهَا فَضْلَانَتُ عَلَى بَعْضِ قَوْمٍ مَشَّوْا بِالثِّيَابِ

ولكن لماذا كان الشاعر العاقل يتحامق؟ وما الهدف من وراء إلغاء العقل واختيار الحماقة؟ هنالك عدة أهداف يمكن استخراجها من الشعر الكثير الذي خلفه أولئك الشعراء، أهمها:

1- التكسب: أشار الشاعر أبو العجل - كما مر بنا - إلى هذا الهدف بوضوح، فقد صيّر تحامقه له بغالاً وغلطة بعد أن كان لا يملك شيئاً كما يقول. وقد رأى كثير من الشعراء في العصر المملوكي أن إلزام - الذي اختلّت فيه القيم والمفاهيم للأسباب التي أشرنا إليها - ليس زمان العقلاء، فكل ما فيه يناقض العقل، أو على أقل تقدير لا يخضع لمقاييس العقل وأحكامه، ولو كان يخضع للعقل لما نالهم منه ما نالهم من فقر وإهمال، ورأوا أيضاً أن السخرية من النفس تجعل الآخرين يضحكون، ولا سيما الممدوحين. وهذا الضحك فاتحة الرضا والقبول. وماذا يريد الشاعر المتكسب بشعره أكثر من أن يرضى الممدوح عنه ويثبته على شعره، مهما كانت طبيعة هذا الشعر، وصورة صاحبه في

والشعر الذي قيل من أجل التكبس كثير، لا يكاد يخلو منه ديوان شاعر، صغير أو كبير، لكننا لا نريد من شعر التكبس إلا ما جاء منه على أسلوب التحامق. من ذلك قول الشاعر أبي الحسين الجزار يخاطب ممدوحه جمال الدين بن مطروح (649هـ)، متذللاً له، جاعلاً من نفسه (عبداً مملوكاً) له، واصفاً سوء حاله في فصل الشتاء الذي فصل عظامه، فبدأ كالميت المنبوش من قبره، لأنه ليس لديه ما يدفع عنه شر البرد سوى لحافٍ بالٍ. ومن هاهنا يصير لهذا العبد المملوك حق وحرمة عند ممدوحه كما يقول (48):

قُ عَلَى الْمَوْلَى وَخُرْمَةٌ
لَا يُطِيقُ الْآنَ كَتَمَهُ
هَجْمَةً مِنْ بَعْدِ هَجْمِهِ
صَلَّ هَذَا الْفَصْلُ عَظَمَهُ
مَخَّاتِ الْأَيَّامِ رَسَمَهُ
رَأَهُ مَا أَتَقَنَّ رَذَمَهُ
فِي بَقَايَا الْقُطْنِ رُمَّهُ

يَا أَيُّهَا الْمَوْلَى الْوَزِيرُ الَّذِي
إِلَيْكَ نَشْكُو حَالَنَا إِنَّمَا

إِلَيْكَ نَشْكُو حَالَنَا إِنَّا
عَائِلَةٌ فِي غَايَةِ الْكَثْرَةِ

وبعد أن يصف سوء أحوال عياله وحاجتهم إلى الطعام يصف شجاراً مضحكاً دار بينه وبين زوجته، وقد انتهى هذا الشجار بأن ضربته زوجته على رأسه بأجرة، بعد أن أسمعته ما لا يليق به سماعه من كلام سيئ. وقد حدث الشجار بسبب فقره، ولأن أخت زوجته لا تطيقه، فأوغرت صدر أختها عليه، وشجعتها على الاستهانة به وتحقيره، ولو وصل الأمر إلى حد الطلاق. فمن كانت حاله كحال البوصيري فله حق على ممدوحه في أن ينظر في أمر مساعدته كما يقول (49):

والأختُ في الغيرةِ كالضَّرَّةِ
وصَبْرَها مني على العِشره
كذا مع الأزواجِ يا غِرَّه
تَخْلُفُ مِنْكَ ولا فَتْرَه
أو انتَفِـيها شعرةً شعره
فإن زوجي عنده ضَجْرَه
طلَّقْتُني قالت لها بَغْرَه
فجاءتِ الزوجةُ مُحْتَرَه
فاسقِبتُ رأسي بأَجْرَه
من أول الليلِ إلى بُكْرَه
أن ينظرَ المولى له نظْرَه

ويومَ زارت أمُّهم أختها
وأقبلت تشكو لها حالها
قالت لها: كيف تكون النساءُ
قومي اطلبي حَقَّك منه بلا
وإن تَأبَى فخذني ذَقْنَه
قالت لها ما عادتي هكذا
أخافُ إن كَلَنْتُه كَلِمَةً
وهَوَّت قَدْرِي في نفسها
فاسقِبتُني فتَهَدَّدْتُها
وباتت الفتنَةُ ما بيننا
فحقَّ مَنْ حالتهُ هذه

بل إنه يذهب إلى أبعد من هذا بكثير، عندما يخاطب ناظر الشرقية بمصر ليسترد منه حمارته
التي استعارها الناظر منه، إذ يجعل من نفسه مملوكاً لذلك الناظر، وكذلك حمارته، كما يجعل نفسه
جاهلاً يستحق الفضيحة بين الناس، وحماراً تحمل منه أثانه، لذا لا يحل لأحد أن يأخذ منه هذه الأتان
لأنها حامل منه، فقال يخاطب الناظر على لسان الحمار (50):

ألفاظُه لي بأنه فاضِلُ
قَطُّ ولكن سيدي جاهل
لقلتُ غيظاً منه: يَسْتَاهِلُ
من بلدي في جوائِبِ الساحل
مَلِكِي فأتني من سيدي حاملٌ

"المملوكة حمارة البوصيري:
يا أيها السيدُ الذي شهدتُ
ما كان مثلي يُعيرُه أحدُ
لو جرَّسوه عليَّ مِنْ سَفَه
وبُغْيَتِي أن أكون سائِبَةً
وبعدَ هذا فما يحِلُّ لكم

و(يستعطف) ابن نباتة ممدوحه بذكر فقره الذي جعله كالموتى، فأحشأه منطبخة بالهم لا
الطبيخ، وحلَّته (بطنه) ليس فيها من طبيخ إلا الغم، مما جعل عقله في غياب كما يقول (51):

للمِسْكِ سِرٌّ غيرُ مكتومٍ
أصبح في حالةٍ مَرحومٍ
يزالُ في حَلَّةٍ مَغْمومٍ

يا صاحبَ السُّرِّ وفي ذِكْرِهِ
عظفاً على مَنَتِ من الفقرِ قد
منطَبَخَ الأحشاءُ بالهم لا

قَدْ أَفْسَدَتْ فَأَقَتْهُ ذَهْنَهُ فَهُوَ مُعَافَى مِثْلُ مَحْمُومٍ
ثُمَّ يَلْجَأُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ إِلَى اسْتِجْدَاءِ الْعِطَاءِ مِنْ مَمْدُوحِهِ اسْتِجْدَاءً صَارِخاً، فَهُوَ لَا يَطْلُبُ مِنْهُ
إِلَّا أَنْ يَتَصَدَّقَ عَلَيْهِ بِقَفَّةٍ فَحَمٍ، بَعْدَ أَنْ شَرَحَ لَهُ سُوءَ حَالِهِ، وَمَا أَصَابَهُ مِنْ بَرْدٍ شَدِيدٍ جَعَلَ جَسَدَهُ
يَرْتَعَشُ بَعْدَ أَنْ صَارَ لَوْنُهُ أَزْرَقَ (52):

مَا تَرَى الْعَبْدُ كَيْفَ أَصْبَحَ مَا أَسَدَ وَأَوْ حَالاً وَمَا أَذَلَّ وَأَخْفَرَ
كُلُّ صُبْحٍ يَرُومُ بِالْبَرْدِ ذَبْحِي فَلَهُذَا يَقُولُ اللَّهُ أَكْبَرَ
زُرْقَةُ الْجَسْمِ وَابْيَضَاضُ ثُلُوجِ أَلْبَسَاتِي ثُوبَ الْعَذَابِ مُشَهَّرِ
فَتَصَدَّقْ وَابْعَثْ بِقَفَّةٍ فَحَمٍ إِنَّ فَحْمِي مَضَى وَكَيْزِي تَغَيَّرِ

ويشير الشاعر صفي الدين الحلي (750هـ) إلى أن التكبس هو السبب الوحيد لتحامقه.. فهو
عاقِلٌ تماماً، لكنه يتحامق بذكر سوءاته لينال عطف ممدوحه وعطاءه. وقد أشار في قصيدة له إلى
تلك السوءات، ومنها: خسة نفسه، وبخله الشديد، وقذارته في المأكَل والبدن، ثم ختم القصيدة بقوله
لممدوحه شمس الدين: إنني على عكس ما قلت، وإنما لجأت إلى هذا التحامق لأنك مللت مني،
وأبعدتني عنك، وحرمتني عطائك، وأنا كالنبات إذا ابتعد عن الشمس - يريد الممدوح - ذبل
وفسد (53):

فَهَذِهِ الْأَوْصَافُ مَكْسُوبَةٌ أَذْرَكَهَا فِي غُرْبَتِي حِسِّي
قَدْ عَلِمَ السُّلْطَانُ مِنْ قَبْلِهَا أَنِّي مِنْ ذَلِكَ بِالْعَكْسِ
لَكِنْ شَمْسُ الدِّينِ مَذْمُومَتِي صَوِّحَ نَبَاتِي وَذَوَى غُرْسِي
كَذَاكَ كُلُّ النَّبَاتِ مِنْ شَأْنِهِ يُفْسِدُهُ الْبُعْدُ عَنِ الشَّمْسِ

2- نقد المجتمع بقصد الإصلاح: رأى كثير من الشعراء مفاصد عصرهم المختلفة ماثلة للعيان،
شديدة الضرر بالناس، لكن الحكام لم يحركوا - في كثير من الأحيان - ساكناً لإصلاحها، أو للحد من
انتشارها، فعبر هؤلاء الشعراء - من خلال التحامق - عن رفضهم لهذه المفاصد، وأشاروا إليها
مراراً، بالتلميح حيناً، وبالتصريح حيناً آخر، لعل أحداً يسمع شكواهم وانتقادهم، فيبادر إلى إصلاح
ما فسد. وهذا التوجه مهم للغاية، لأنه يربط الشعر بالمجتمع وبقضايا التي أغفل المؤرخون كثيراً
منها، وأعرض كثير من الشعراء القدامى عنها، لانشغالهم بموضوعات الشعر الرسمي، ولا سيما
المديح، فلم تظهر صورة المجتمع وأحوال الناس في دواوينهم، بل إننا في كثير من الأحيان لا نرى
صورة الشاعر نفسه فيها، فإذا أشار إليها فمن خلال حديثه عن أشواقه ومواجهته، مما يدخل في
الشعر المصنوع الذي لا علاقة له بحقيقة مشاعر قائله في كثير من الأحيان.

ولما كان الفساد ضارياً أطنابه في إدارات البلاد المختلفة في العصر المملوكي كان لا بد أن

أترى مَنْ يكونُ في هذه الحَا
ونخوضُ الفراتَ في شهرٍ كانوا
كيف أقوى على الجهادِ وخُبْزي
لِ مُطِيقاً بِنِكارِ تلكَ البلادِ
نَ وكانونَ مُصْنَعَبٌ في القِيَادِ
ما أراه يكفِي لِسُفْرَةٍ زادي

وهذه القصيدة وثيقة خطيرة تفصح عن سوء أحوال (أجناد الحلقة)، وهو سوء ناتج عن الفساد الذي وصل إلى الجيش المملوكي نفسه، مما يشير بوضوح إلى أهم أسباب النكسات التي مُني بها هذا الجيش عبر تاريخه الطويل، كما يعبر الشاعر من خلال هذه القصيدة عن مشاعر رفاقه من الجنود، مما يقل نظيره في الشعر العربي. وقد عبر عن هذا الشعور بالتوحد أمام المصيبة من خلال الضمير الجمعي (نحن) منفصلاً ومتصلاً (نا)، وبارزاً ومستتراً. وقد ظل هذا الضمير الجمعي مسيطراً على القصيدة من أولها إلى ما قبل البيت الأخير فيها، عندما فصل الشاعر نفسه عن نفوس رفاقه، وخصها بالحديث من خلال بيت شعري واحد، مما يشير بوضوح إلى اهتمام الشاعر بالتعبير عن قضية عامة هو طرف فيها، كما يشير إلى إحساس الشاعر العميق بالانتماء إلى الآخرين ممن يجمعه بهم واقع واحد، ومصير واحد.

ويشير شاعر آخر هو أمين الدين جُوبان الدُّنيسَرِي (680هـ) إلى فساد بعض الصوفية في عصره ممن يقولون بالاتحاد بين الخالق والمخلوق، اتحاداً تخلط فيه الذات الإنسانية بالذات الإلهية، فيرى الصوفي نفسه فيه وإله شيئاً واحداً؛ يتكلم باسمه، ويصير هو، على مذهب الصوفي المشهور الحسين بن منصور المعروف بالحلاج (309هـ)، لكن الشاعر أمين الدين سخر من هؤلاء الصوفية، وانتقدهم انتقاداً لاذعاً من خلال تحامقه هو، فقال (55):

مِتْ في عِشْقِي ومِعْشَوْقِي أَنَا
غَبِيتُ عَنِّي فَمَتَى أَجْمَعُنِي
أَيُّهَا السامِعُ تَذْري ما الذي
فَفؤادي مِنْ فِرَاقِي في عَنَا
أَنَا مِنْ وَجْدِي مَنِي في فَنَا
قَلْبُهُ؟ وَاللهِ لا أدري أَنَا

ويشير الشاعر أبو الحسين الجزار إلى تصدُر بعض الجهلة المناصب، وهم يظنون أنهم يستحقونها، لكنهم في الحقيقة لا يمتلكون أدواتها، وكل ما امتلكوه منها معلومات يسيرة لا تتقَع غلة ولا تَبْلُ صدى. وهذا أمر طبيعي حصوله في زمان كثرت فيه المفاصد والتناقضات كالعصر المملوكي، فتوصل بعض الجهلة إلى أسنى المراتب. وقد سخر الشاعر من هؤلاء من خلال تحامقه هو؛ فقد أظهر نفسه جاهلاً لا يعلم إلا القشور، رصيده من المعارف ضئيل لا يؤهله للصدارة، كذاك الذي يدّعي التدين، تعلم آيتين فظن أنه صار مقرئاً (56):

قَطَعْتُ شَبِيبَتِي وَأَضَعْتُ عَمْرِي
وَمَا لِي أَجْرَةٌ فِيهِ وَلَا لِي
وقد أَتَعَبْتُ في الهَذْيَانِ فِكْرِي
إِذَا مَا مَتَ يَوْمًا بَعْضُ أَجْرِي

قَرَأْتُ النَحْوَ تَبَيَّاناً وَفَهْمَا
فَمَا اسْتَنْبَطْتُ مِنْهُ سِوَى مُحَالٍ
وَفِي عِلْمِ الْعُرُوضِ دَخَلْتُ جَهْلًا
وَقَدْ شَارَكْتُ فِي لُغَةٍ وَنَحْوٍ
كَأَنِّي مِثْلُ بَعْضِ النَّاسِ لَمَّا
إِلَى أَنْ كُفْتُ مِنْهُ وَضَاقُ صَدْرِي
يُحَالُ بِهِ عَلَى زَيْدٍ وَعَمْرُو
وَعُنْتُ بِخَفَّتِي فِي كُلِّ بَحْرٍ
بِلَا عِلْمٍ وَشَاعَ بِذَاكَ ذِكْرِي
تَعَلَّمُ آيَتَيْنِ فَصَارَ مُقَرِّي

ويشير الشاعر إلى مصطلح المشاركة بقوله (شاركت)، وهو مصطلح يراد به الإمام بعلم من العلوم من غير التعمق فيه. وكان يقال في العصر المملوكي: برع فلان في الطب، وله مشاركة في المنطق. يريد الشاعر أن يقول: إنني أردت التصدر من غير أن أتمكن من العلم، كذاك الجاهل في الدين الذي تعلم آيتين فظن أنه صار مقرناً.

3- التنفيس عن النفس المحبطة، لإقامة توازن عقلي ونفسي معاً: فقد أحس الشعراء في العصر المملوكي أنهم مهزومون من الداخل، لأنهم لم يستطيعوا أن يحققوا رغباتهم في الواقع، بل كانت العوائق المختلفة أكبر من تلك الرغبات، وبذلك صار التحامق تسرية عن تلك النفوس المهزومة التي لم تستطع الوصول إلى ما تريد، ولم تستطع تغيير الواقع المر، فلجأت إلى السخرية لتقويم ذلك التوازن المنشود الذي حرمت منه في الواقع. وقد تنبه الدنجي (838هـ) لهذا، فألف كتاباً سماه (الفلاكة والمفلوكون)، تحدث فيه عن الفقراء من أهل العلم والأدب والفضل، ممن عاشوا محرومين من كل شيء على الرغم من فضلهم، وأشار إلى أهمية السخرية في التغلب على النفس المحبطة المقهورة التي لم يعد بيدها حيلة لدفع المكروه عنها، فقال: "علم أن الفلاكة إذا استولت على شخص، وسلبت له القدرة على الأفعال انتقل إلى الاسترواح والتنفيس بالأقوال، وذلك لما أن في الكلام زاحمة وفرجاً وتنقيصاً من ألم الباطن" (57). وفي كتب التاريخ حادثة مهمة تشير إلى سلوك ينطبق على هذا الفهم؛ ففي سنة 853هـ ضرب وباء مدمر مصر، فقتل خلقاً بالآلاف، ولكن على الرغم من ذلك شوهد الناس في شوارع القاهرة "وهم يضحكون ويهزلون، على حين كان الوباء يحصد منهم في اليوم الواحد عشرة آلاف نفس على الأقل" (58).

ولم تستطع الأزمات الاقتصادية المتوالية، وما رافقها من ظلم الحكام أن تقتل روح السخرية في نفوس الناس، بل جعلتهم يتعالون على واقعهم الذي لم يستطيعوا تغييره، والاتجاه إلى السخرية من هذا الواقع؛ ففي سنة 694هـ تسلطن أمير مملوكي من أصل مغولي هو (كتبغا)، وتسمى بالعادل زين الدين، وقرب إليه بني جنسه من المغول، وأسكنهم حياً من أحياء القاهرة اسمه (الحسينية)، وكان هؤلاء المغول وثنيين، فلحق بالمسلمين ضرر كبير منهم. وقد عبر الشاعر شمس الدين محمد بن دينار عن هذا الواقع المر الذي لم يستطع أن يسلب الناس روح السخرية، فقال يصف ما لحق بالعرب المسلمين من ضرر وغلاء بسبب دولة كتبغا ذات الأصل المغولي (المغلية الأولى)، وكيف أن الناس صلبوا وطبخوا في تلك الدولة التي طبختهم وغلتهم (المغلية الثانية) (59):

ربُّنا اكشِفْ عِنا العذابَ فَإِنا
قد تَلَفِنا في الدُولَةِ المَغْلِيَّةِ
جاءنا المَغْلُ والغُلا فانتَصَلَقنا
وانطَبَخَنا في الدُولَةِ المَغْلِيَّةِ

4- السخرية بالنفس لتفويت الفرصة على الآخرين حتى لا يسخروا من الشاعر: وقد أشار الدَّلْجِي في كتابه السابق الذكر إلى هذه الناحية، فقال: إن هؤلاء الساخرين بأنفسهم "يسابقون إلى ذكر نقائصهم، ويجعلونها رِقَّةً أدبية، أو نكتةً شعرية، أو كلمةً هزلية، قبل أن يذكرها غيرهم عنهم، ليصرفوا الناس عن الاشتغال بها، لأن النفوس تكره المعاد، وليكون ذلك أخف على نفوسهم، لما أن الشخص لا يتأفف من نفسه ما يتأفف من غيره، ولا يتقل عليه كلامه ككلام غيره" (60). وفي هذا الكلام شرح واف لهذا الهدف؛ فهؤلاء المتحامقون يسخرون من أنفسهم ليفوتوا الفرصة على الآخرين في السخرية منهم. وماذا سيقول خصومهم في السخرية منهم بعد أن سخروا هم من أنفسهم أولاً؟ وما الفائدة من إعادة ما قاله الشاعر من سخرية بنفسه على لسانهم؟ ثم إن الشاعر لا يتأفف من نفسه كما يتأفف من غيره، ويكون كلامه هو على نفسه أخف وطأة عليه من كلام الآخرين عليها.

5- الترويج للشعر، والرغبة في احتلال مراكز الصدارة في الشعر والمجتمع، بعد أن ظن هؤلاء الشعراء المتحامقون أن تحامقهم سيجلب لهم الشهرة بين الناس. وقد حظي هؤلاء الشعراء المتحامقون بإقبال العامة على أشعارهم، وإعجابهم بها، فزادوا القول فيها. وأن يستجيب الشاعر لرغبات معاصريه- ولا سيما العامة- أمر خطير، لأنه يعني أن ينظم الشاعر كما يريد غيره، لا كما يريد هو. صحيح أن الشاعر لا ينظم لنفسه فحسب، بل ينظم ليقرأ شعره الناس. ولا قيمة للشعر ما لم يقرأه الناس ويعجبوا به، أو ينتقدوه، بل إن انتقاد الشاعر يزيد في شهرته. لكن ذوق الناس- ولا سيما العامة- يحمل كثيراً من الغناء والضعف والفساد، مما سيؤثر سلباً في شاعرية من يكتب لهم. لكن الشعراء المتحامقين لم يهتموا كثيراً بهذا الأمر، لأنهم كانوا يريدون ترويج شاعريتهم وأشعارهم عند العامة عن طريق التقرب إليها بما تحب. ومما زاد في تقرب الشعراء إلى العامة أن شعر التحامق كان يحمل في طياته كثيراً من النقد الاجتماعي اللاذع، ويعبر عن هموم العامة وقضاياها الأساسية. وقد اضطر كثير من الشعراء في العصر المملوكي إلى النظم في أغراض ليسوا راضين عنها، استجابة لرغبة العامة، ورغبة في سيرورة أشعارهم؛ فالشاعر القاضي ابن السوردي اضطر إلى أن يتغزل بالغلمان، على الرغم من تقواه وورعه ليروج شعره. وقد اعترف بذلك بوضوح فقال (61):

أستغفرُ اللهَ مِنْ شِعْرِ تَقَدَّمَ لِي
فِي المُرَدِّ قَصْدِي بِهِ تروِيجُ أشْعاري
لكن ذلك قولٌ ليس يَتَّبِعُهُ
خِناً وحاشايَ مِنْ أفعالٍ أشرار

فلماذا لا ينظم الشعراء الآخرون في التحامق، راضين أو مكروهين، ما دام هذا اللون من النظم يلقى إقبالاً من العامة ورواجاً عندها؟

موضوعات شعر التحامق:

تعددت موضوعات التحامق في الشعر المملوكي، واختلط بعضها ببعض اختلاطاً يصعب في كثير من الأحيان فصله، لكن النقد الساخر من المجتمع يسود هذه الموضوعات عموماً، وإن كان نقداً غير مباشر في كثير من الأحيان، وكأن الشاعر يحمل المجتمع والحكام مسؤولية تدني أحواله وأحوال الشعراء الآخرين إلى هذا الحد الذي اضطروهم إلى الشكوى من سوء الحال، واللجوء إلى التحامق والسخرية من النفس سخريّة مرة. ويمكن الإشارة إلى أهم هذه الموضوعات:

1- التحامق بذكر أحوال الشاعر الاقتصادية السيئة، من فقر وسوء حال: وهذا كثير في الشعر المملوكي، لأن التكسب كان أهم الغايات التي كان يسعى إليها الشاعر المتحامق، كما أشرنا من قبل. من ذلك قول الشاعر أبي الحسين الجزار يصف فقره الشديد؛ فليس في بيته دينار يغطيه ويقيه برد الشتاء، وليس لديه ما يدفع عنه حر الصيف، فاضطر إلى أن ينفخ شِدْقَه ليكون مخدّة، وأن يفترش ظله ليكون حصيراً(62):

ولم ألقَ في بيتي ديناراً أعدّه
فأنفخُ شِدْقِي إن أردتُ وسادّه
لسبردٍ ولا شيءَ يَرُدُّ هَجِيراً
وأفترشُ ظِلِّي إن أردتُ حصيراً

ويذهب بعيداً في تصوير فقره تصويراً مضحكاً، فيكمل الصورة التي بدأها من قبل، ويفصل القول فيها؛ فهو لشدة فقره ليس بيته، وزرر أبوابه عليه حتى استطاع أن يغسل أثوابه التي لا يمتلك غيرها، وهو- لبرودة بيته- مضطر إلى النوم في الزبل ليحصل على الدفء، أو مع الكلاب فوق قذر الحلوى أمام دكان الحلواني، في حين كان أصحابه ينعمون بدفء الجمر في بيوتهم العامرة بالخير. ورأى أخيراً أنه -لسوء حاله- يستحق أن يحرق مع النفايات والخرق البالية في مستودع الحمام(63):

لبستُ بيتي وقد زررتُ أبوابي
وقد أزال الشّتَا ما كان من حمّقي
عليّ حتّى غسلتُ اليومَ أثوابي
دعني فمُسْتَوْقَدُ الحَمَامِ أولى بي
ما بين جمر به ما بين أصحابي
مع الكلابِ على دكانِ غلابي
أوفوق قِذرِ هَرِيسٍ بَتُ أخْرُسُها

ولم تختلف حال ابن نباتة عن حال الجزار، فهو مثله يتلقى برد الشتاء وتلوجه بجلده، لأنه لا يمتلك أثواباً تقويه ذلك البرد، حتى صار لون جسده أزرق، وكأنه سنجاب يغطيه الثلج الأبيض(64):

يا سيدي عطفاً فإني ميتٌ
زُرْقَةُ جِسمي وبياضُ ثَلْجِها
وفي دمشقَ اليومَ برّدٌ قد عَنّا
سِنجابِي الأَبْلَقُ أيامَ الشّتَا

ويلجأ أبو الحسين الجزار إلى التحاق من خلال معارضة ساخرة لقصيدتين جاهليتين مشهورتين لامرئ القيس، هما معلقته المشهورة التي مطلعها (65):

قفَا نَبْكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ
بِسِقْطِ اللَّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَخَوْمَلِ

وقصيدته الأخرى المشهورة التي مطلعها (66):

أَلَا عَمَّ صَبَاحاً أَيُّهَا الطَّلُّ الْبَالِي
وَهَلْ يَعْصَنُ مَنْ كَانَ فِي الْعَصْرِ الْخَالِي

وقد مزج الجزار بين هاتين القصيدتين، مستغلاً إشارة امرئ القيس إلى الطلل البالي الذي لا يجيب سائله، والأحبة الراحلين عنه، فحول الجزار قصيدته إلى ذكر سوء حاله؛ فهو لا يبكي على أطلال المحبوبة البالية، بل يبكي على فقد أسماله البالية، على الرغم من أنها لم تعد نافعة لشيء، وهو مضطر إلى سكن القياس لينعم بالدفع الذي فيها، ولا يعنيه غيرها من أماكن المحبوبة، ويتمنى أن يرتدي ملابس طويلة كأصحاب الفضل والدين ويتباهى بها على أقرانه، أو أن يرتدي ملابس من جوخ تقويه برد الشتاء، فإن حصل على ما يريد فهذا هو المجد الذي يستحقه كما يقول (67):

قفَا نَبْكَ مِنْ ذِكْرِي قَمِصٍ وَسِرْوَالِ	وَذِرَاعَةٍ لِي قَدْ عَفَا رَسْمُهَا الْبَالِي
وَمَا أَنَا مِنْ يَبْكِي لِأَسْمَاءٍ إِنْ نَأَتْ	وَلَكِنِّي أَبْكِي عَلَى فَقْدِ أَسْمَالِي
وَلِي مِنْ هَوَى سَكَنَى الْقِيَاسِ عَنْ هَوَى	بِتَوْضِيحٍ فَالْمِقْرَاءِ أَعْظَمُ أَشْغَالِي
وَلَأَسِيمًا وَالْبَرْدُ وَاقِيَ بَرِيدِهِ	وَحَالِي عَلَى مَا اعْتَدْتُ مِنْ عُسْرَةِ حَالِي
تُرَى هَلْ يِرَانِي النَّاسُ فِي فَرَجِيَّةٍ	أَجُرُّ بِهَا تَيْنَهَا عَلَى الْأَرْضِ أَذْيَالِي
وَيُمْسِي عَدُوِّي غَيْرَ خَالٍ مِنَ الْأَسَى	إِذَا بَاتَ مِنْ أَمْثَالِهَا بَيْتُهُ خَالِي
وَلَوْ أَنَّنِي أَسْعَى لِتَفْصِيلِ جُبَّةٍ	كَفَاتِي وَلَمْ أَطْلُبْ قَلِيلاً مِنَ الْمَالِ
وَلَكِنِّي أَسْعَى لِمَجْدٍ بِجُوحَةٍ	وَقَدْ يُدْرِكُ الْمَجْدُ الْمُؤْتَلَّ أَمْثَالِي

2-التحاقق بذكر العيوب الأخلاقية: من بخل وجبن ورياء وغفلة.. بقصد التكبس وإضحاك الآخرين، كقول صفى الدين الحلبي يصف نفسه بالبخل الشديد؛ فهو يخزن الفلوس على الفلوس، ويزاحم الجمال في قوته، ويأكل مع غلمانة فضلة طعام الأمس، فإذا وضع قطعة لحم في القدر تلا عليها آية الكرسي ليحفظها الله ويصونها، وإن رأى في بيته فأرة هجم عليها بالسيف والترس حتى لا تأكل شيئاً مما في بيته، أرغفته لا يصل المرء إليها باللمس والذوق، بل بالسمع والنظر والشم فحسب، فإذا أراد أن يأكل أغلق عليه باب بيته حتى لا يأتيه سائل أو ضيف، وإن فاجأه الضيف عبس في وجهه، ورغبه في الحمية عن الطعام بدل الأكل، فإن اضطر إلى إطعامه فليس هنالك إلا الخبز والدبس. والويل للضيف إن أكل أكثر من لقمة واحدة، فعندئذ يبادر إلى رفسه في ضلوعه

حتى يكسرها له (68):

يُزاحِمُ الْجَمَالَ فِي قُوَّتِهِ
يَأْكُلُ وَالْغُلَمَانَ فِي يَوْمِهِ
إِذَا رَأَى فِي قِدْرِهِ لَحْمَةً
وإن رَأَى فِي بَيْتِهِ فِأَرَةً
يُجِلُّ أَنْ تُذْرِكَ رُغْفَاتُهُ
بِالسَّمْعِ وَالْأَبْصَارِ وَالشَّمِّ قَدْ
يُقْفَلُ عِنْدَ الْأَكْلِ أَبْوَابُهُ
فَإِنْ أَتَى ضَيْفٌ عَلَى غِرَّةٍ
يَلْقَاهُ بِالتَّرْغِيبِ فِي الْإِحْتِمَا
فَإِنْ تَعَدَّ أَكْلُهُ نُقْمَةً

وَيَخْزِنُ الْفَلْسَ عَلَى الْفَلْسِ
فَضْلَةً مَا قَدْ كَانَ بِالْأَمْسِ
تَلَا عَلَيْهَا آيَةَ الْكُرْسِيِّ
بَادَرَهَا بِالسَّيْفِ وَالْتَرَسِ
حَوَّاسٌ مَنْ يَأْتِيهِ بِالْخَمْسِ
تُذْرِكُ دُونَ الذُّوقِ وَاللَّمْسِ
خَوْفًا عَلَى الزَّادِ مِنَ الْكَسْبِ
قَابَلَهُ بِالتَّعْنُسِ وَالنَّعْسِ
وَبَعْدَهُ بِالْخَبْزِ وَالذُّبْسِ
رَأَيْتَ فِي أَضْلَاعِهِ رَفْسِي

وَيَتَحَامَقُ الشَّاعِرُ الْمَعْرُوفُ بَابِنُ الصَّاحِبِ (688هـ-) بِذِكْرِ عَيْثِهِ وَلِهَوَاهُ وَمَجُونِهِ، فَهُوَ يَشْرَبُ الْخَمْرَ، وَيَمْضَغُ الْحَشِيشَةَ، لِذَا غَابَ عَنْ وَعِيهِ، وَلَمْ يَسْتَطِعِ الْإِهْتِدَاءَ إِلَى بَابِ مَدْرَسَتِهِ، فَمِنْ يَدُلُّ ذَلِكَ الْبَابَ عَلَيْهِ يَرِيحُ الْأَجْرَ وَالثَّوَابَ كَمَا يَقُولُ (69):

جَمَعْتُ بَيْنَ الْحَشِيشِ وَالْخَمْرِ
يَا مَنْ يُرِينِي لِبَابِ مَدْرَسَتِي

فَرُخْتُ لَا أَهْتَدِي مِنَ السُّكْرِ
يَمْرِيحُ وَاللَّهُ غَايَةَ الْأَجْرِ

وَحَالُ ابْنِ دَانِيَالٍ لَا تَخْتَلِفُ كَثِيرًا عَنْ حَالِ ابْنِ الصَّاحِبِ هَذَا؛ قَابِنُ دَانِيَالٍ لَمْ يَعْزِمْ قَادِرًا عَلَى تَعْرِفِ بَابِ بَيْتِهِ أَيْضًا، لَكِنْ السَّبَبُ مُخْتَلَفٌ؛ فَزَوْجَتُهُ أَكْثَرَتْ مِنْ إِطْعَامِهِ حَتَّى جَعَلَتْهُ كَالْغَائِبِ عَنْ الْوَعْيِ، فَهُوَ لَا يَمِيزُ نَفْسَهُ مِنْ غَيْرِهِ، حَتَّى إِنَّهُ لَوْ صَفَّعَ عَلَى قَفَاهُ لَظَنَّ أَنَّ جَارَهُ هُوَ الْمَصْفُوعُ، نَهَارَهُ لَشِدَّةُ بِلَادَتِهِ كَاللَّيْلِ فِي التَّسَاوِي، وَمُخُ الْجَمَالِ وَالْحَمِيرِ خَيْرٌ مِنْ مَخِهِ، فَقَالَ يَخَاطَبُ أَحَدَ الْقَضَاةِ:

بَكَ أَشْكُو مِنْ زَوْجَةٍ صَيَّرَتْنِي
غَيْبَتْنِي عَنِّي بِمَا أَطْعَمْتْنِي
غَيْبَتْ حَتَّى لَوْ أَنَّهُمْ صَفَّعُونِي
فَنَهَارِي مِنَ السَّبَلَةِ لَيْلٍ
دَارَ رَأْسِي عَنْ بَابِ دَارِي فَبِاللَّ
أَيْنَ مُخُ الْجَمَالِ مِنْ طَبْعِ مُخِي

غَائِبًا بَيْنَ سَائِرِ الْخُضَارِ
فَأَنَا الدَّهْرَ مُفَكِّرٌ فِي انْتِظَارِ
قُلْتُ كُفُّوا بِاللَّهِ عَنْ صَفْعِي جَارِي
فِي التَّسَاوِي وَاللَّيْلِ مِثْلُ النَّهَارِ
إِنِّي أَخْبَرُونِي يَا سَادَتِي أَيْنَ دَارِي
فِي التَّسَاوِي وَأَيْنَ مُخُ الْحَمَارِ

أنا كالبان في قوامي وإن أف
رَدَّتْني كنتُ في التَّهَارُشِ ضاري
أنا مثلُ الخروفِ قرناً وإن أسد
فَقَطُ فأتني أَعْدُ في الأقدار
أنا لو رُمْتُ للعلاج طبيباً
ما تَعَدَّيْتُ دَكَّةَ البَـيْطار

ويختم قصيدته هذه بذكر ذكائه الحاد، ويفسر الماء بعد الجهد بالماء كما يقال، فيأتي بالبديهيات؛ فهو لشدة ذكائه يعرف أن بابَه الخشبي من صنع النجار، وأن بياض البيض يكون فوق صفاره قبل أن تكسر البيضة، وأن كوز النحاس أقوى من كوز الفخار. وبعد أليس حفظه لهذه الأشياء أمراً عظيماً على الرغم من تقدمه في السن؟ (70)

بعد ما كنتُ من ذكائي أدري
أخزِرُ البيضَ قبل ما يكسروه
وبعيني نظرتُ كوزَ نحاسٍ
وكتيرَ مني على شيبِ رأسي
أن بابي من صنعة النجار
أن فيه البياض فوق الصَّفار
كان عندي أقوى من الفخار
حفظُ هذي الأشياءِ مثل الكبار

3- التهامق بذكر العيوب الخلقية والأشكال والأسماء: كان يسخر الشاعر من اسمه ولقبه، أو من شكله الخارجي، أو من ضعفه الجنسي.. كقول الشاعر ابن دانيال يسخر من لقبه (شمس الدين)، ويرى أنه شمس، والشمس لا بد لها من طلوع، لكن هذا الطلوع لم يكن إلا داء أصاب ضلوعه، يشير إلى سوء حاله وهوانه وقلة حظّه (71):

كم قيل لي إذ دُعيتُ شمساً
فكان ذاك الطُّلوعُ داءً
لأبَدَ للشمسِ من طُلُوعِ
يَرَقَى إلى السَّطحِ من ضلوعي

وقد سخر الشاعر سِرَاجُ الدين الوراق من لقبه (سراج) وصناعته (الوراق)، وقال فيهما شعراً كثيراً، حتى قيل له: "لولا لقبك وصناعتك لذهب نصف شعرك" (72). وتدور سخريته من لقبه هذا حول شكل السراج وعمله؛ فقد خرج الشاعر في يوم ماطر من أيام الشتاء، فتبلل جسمه بالمطر، وصار يتقاطر منه كما تتقاطر حبات الماء والزيت من القنديل عندما يشتعل (73):

أقولُ في يومِ شتاءٍ له
خرجتُ من بيتي سراجاً وقد
من سُخْبِهِ ما خَلَّفَ النُّيلاً
عدتُ بحمدِ الله قنديلاً

ويسخر في موضع آخر من شكله؛ فهو أبيض البشرة، أشقر الشعر، ذو عينين زرقاوين. وهذا الشكل غريب على العرب الذين تغلب عليهم السمرة في البشرة والسواد في الشعر والعينين؛ فهو لا يشبه العرب، كما لا يشبه الفرسان لأن مركوبه الحمار لا الفرس الكريم (74):

ومن رأني والحمارُ مركبي
وزرقتي للرومِ عرقٌ قد ضربَ

قال وقد أبصر وجهي مُقبلاً لا فارس الخيل ولا وجة العرب

ويفضح ابن نباتة نفسه أمام الناس، ويضحكهم عليه بذكر صبوته إلى النساء على الرغم من ضعفه الجنسي، هذا الضعف الذي جعل نساءه محرمات عليه وكأنهن عماته وخالاته، كما يقول (75):

يا عجباً لي بعد عصر الصبا
مُخالف في كل حالاتي
أصبو وقد أصبحت من نسوتي
ما بين عماتي وخالاتي

4-التحامق العبثي بقصد إضحاك الناس فحسب: فقد لجأ كثير من الشعراء إلى إضحاك الناس عليهم، محاولين النكتة التي تجري على ألسنتهم أو ألسنة العوام إلى شعر، من خلال بيتين أو أكثر بقليل، تسهلاً للحفظ على العامة، وتكثيفاً للمعنى. وهذا التحول من جديد الشعراء في العصر المملوكي، وهو تحول يعكس ما جبلت عليه نفوس الشعراء -ولاسيما المصريين- من سخرية وحب للتندر، حتى لو كان موضوع التندر الشاعر نفسه. لكن هذا التحول لم يقدم شيئاً ذا بال إلى الشعر العربي عموماً، والمملوكي خصوصاً، لأنه مجرد نظم، وإن حوى أحياناً بعض الفن، وهو يشير في النهاية إلى تردي الذوق العام، وضآلة ما للشعراء من ثقافة وموهبة، كما يشير إلى فراغ كبير في حياة هؤلاء الشعراء الذين نظموا في موضوعات بعيدة كثيراً أو قليلاً عن معاناتهم وهمومهم. وأي نفع من أن يصف المرء نفسه بأنه قذر كروش الحيوانات؟ وأي فضل له في أن يجعل موطنه تلك الكروش؟ (76):

أيها اللامي لأكلي كروشاً
أقنوها في غاية الإتيان
لا تلمني على الكروش فحبي
وطني من دلائل الإيمان

ويصف ابن نباتة (صنان إبطه) الذي تفوح رائحته النتنة، فيضطر الشاعر إلى إخفائها بطني إبطه، فيبدو وكأنه لص مريب سرق شيئاً وأخفاه تحت إبطه حتى لا يراه الناس (77):

لي صنان أعاذك الله منه
كم أوري إبطي به وأعطني
فكأنني في الناس لص مريب
أتخفي وعماتي تحت إبطي

السمات الفنية لشعر التهامق:

1- بنية القصيدة:

آ- أفراد شعر التهامق في قصائد مستقلة، بعد أن كان في معظمه أبياتاً متناثرة في ثنايا القصيدة، مما يشير إلى أهميته في نظر الشعراء أصحاب هذا الاتجاه. وهذا من جديد الشعراء في العصر المملوكي.

ب-بروز مقدمات جديدة لقصيدة المديح في الشعر المملوكي، تقوم على التحامق، بعد أن كان الشعراء يكثرُونَ من المقدمات التقليدية كالمقدمة الغزلية والخمرية والطللية والوصفية. وتحمل مقدمات التحامق دلالة قوية على إحساس الشعراء بذواتهم، والرغبة في التعبير عنها في مطلع القصيدة، وهو مطلع كان يخصه الشاعر للتعبير عن مشاعره تجاه من يحب، من خلال المقدمة الطللية أكثر المقدمات شيوعاً في الشعر العربي، ولاسيما القديم منه، وإن تخفف الشعراء العباسيون منها كثيراً مفسحين المجال للمقدمة الغزلية لتحل محلها. وكان من الممكن أن يستمر التقديم بالتحامق للقصيدة المدحية لولا سلطة القديم في النفوس التي بلغت حد التقديس، وتشدد النقد في حماية القديم والدفاع عنه، فعاد كثير من الشعراء إلى المقدمات التقليدية، من غير أن يربطهم بها شيء من الصدق في المشاعر والقول في كثير من الأحيان. وفي هذا خسارة كبيرة للشعر العربي الذي أوشك أن يلقى كثيراً من القيود التي كبلت الشعراء باسم الولاء للقديم والنهج على منواله والمحافظة عليه.

فمن مقدمات التحامق التي تصدرت قصائد المديح في الشعر المملوكي ما قاله الشاعر أبو الحسين الجزار في مديح ناظر ثغر الإسكندرية (صدر الدين بن القرميضي). وقد بدأ هذه القصيدة بمقدمة يصف فيها فقره بأسلوب المتحامقين - وسوء حاله، من خلال تسعة عشر بيتاً، في حين خص المديح بستة أبيات فحسب، معظمها في تصوير فاقته أيضاً، وشخصية الممدوح فيها باهتة المعالم، فقال في المقدمة:

لا أبا لي إذا أتاني الشتاء	لي من الشمس خلعة صفراء
ثم ثيابي وطيلسانني الهواء	ومن الزمهرير إن حدث الغيد
رمدار وسقف بيتي السماء	بيتي الأرض والفضاء به سؤ
حل جسمي لقلت إنني هباء..	لو تراني في الشمس والبرد قد أن

ثم يتابع وصف سوء حاله حتى يصل إلى المديح، فيحسن الانتقال إليه من خلال كلمة (الصدر) التي يريد بها الممدوح على سبيل التورية، فيقول (79):

ر غريب وهكذا الغرباء	أنت يا قلب بعد فرقتك الصدا
د هجير الخطوب ظل وماء	لي من جاهه وأخلاقه عن

ويبدأ بعض قصائده المدحية الأخرى ببيت واحد يذكر فيه اسم الممدوح، ثم يسهب في وصف فقره وسوء حاله على مذهب التحامق، وكأن الغاية من تلك المدحة ذكر سوء حاله لا المدح. كقوله في قصيدة موجهة إلى أحد الأمراء يذكر فيها حرمانه من الطعام والحلوى ولا سيما الكنافة (80):

سني وما زلت عارفاً بالمعاني	أي هذا الأمير قد أشكل المغ
التقي الأمر فيه بالعصيان	فإذا سحر المسحر ليلاً
ل أتى الفقر مقبلاً فنهاتي	كلما بات وهو يأمر بالأخذ

2- لغة شعر التحامق:

مال شعر التحامق إلى السهولة في المعاني وفي الأساليب على حد سواء. وهذا يعود إلى سببين؛ أولهما رغبة الشعراء في سيرورة أشعارهم ورواجها عند العامة التي كان حظها من الثقافة ضئيلاً، وثانيهما ضالة حظ كثير من الشعراء من الثقافة، فانعكس ذلك وضوحاً وسهولة في أشعارهم.

ولما كان التقرب من العامة لنيل رضاها هدفاً سعى إليه الشعراء المتحامقون كان لابد من تسلي كثير من مفردات العامة وتعابيرها إلى ألسنة الشعراء، راغبين بذلك أم مدفوعين إليه بسبب ما أشرنا إليه من ضالة حظهم من الثقافة، فبرزت ألفاظ وتراكيب عامية، وأخرى أعجمية، لجريانها على ألسنة الشعراء وغيرهم.

فمن أمثلة المفردات العامية قول الشاعر ابن دانيال يصف فقره الشديد الذي اضطره إلى النوم على (طَرَاة) محشوة بالقمل الذي يشبه السمسَم المتفرق. وكلمة طراحة عامية تعني الفراش الخفيف الذي يُعد للنوم والاضطجاع(83):

مُنْقَى عَلَى (طَرَاة) فِي حَشْوَاهَا قَمَلٌ شَبِيهُ السَّمْسِ الْمُتَبَدِّدِ

وقد يتصرف الشاعر بصيغة عربية الأصل، فيأتي بصيغة جديدة لا توافق عليها معاجم اللغة العربية، كقول ابن دانيال مستخدماً الفعل (انهزى) بمعنى اهترأ، في مقام التعبير عن فقره وسوء حاله(84):

لَمْ يَبْقَ عِنْدِي مَا يُبَاعُ وَيُشْتَرَى
وَبَقِيَّةُ النَّطْعِ الَّذِي لَعِبْتُ بِهِ
إِلَّا حَصِيراً قَدْ تَسَاوَى بِالثَّرَى
أَيْدِي السَّبَلَى لِمَا تَمَزَّقَ وَ(انْهَرَى)

كما يستخدم الشاعر ابن النقيب جمعاً عامياً مصرياً هو (كوارع) بدلاً من أكارع أو أكرع. وكلها جمع لكلمة كراع (ما بين الركبة والكعب)، فيقول يصف نفاق جواده الذي كان يسابق الريح، وحصوله على آخر مسن لا يستطيع المشي، وكأنه بلا (كوارع) (85):

فَإِذَا قِيلَ لَهُمْ بَقِيَ لَكَ رَأْسٌ
قُلْتُ رَأْسٌ لَكِنْ بَغِيرَ (كَوَارِغِ)

وكتيلاً ما يلجأ الشاعر المتحامق -تظرفاً- إلى التراكيب العامية في معرض كلامه على تحامقه، وهذا أسهل عليه وعلى العامة، كقول الشاعر ابن دانيال مستخدماً التعبير العامي المصري (لا فوقى ولا تحتى)، وهو تعبير يدل على العدم والفقر التام (86):

ما عاينت عيناى فى عطلتى
أقل من حظى ومن بخلى

قد بغتُ عبدى وحمارى وقد
أصـبـحتُ (لا فوقى ولا تحـتـى)

أَوْ كَقَوْلِ الْبُوصَيْرِيِّ يَخَاطِبُ الْوَزِيرَ ابْنَ حَنَّا فِي قَصِيدَتِهِ الَّتِي يَصِفُ فِيهَا سُوءَ حَالِهِ وَحَالِ

واقفة في الاتجاه الصحيح، لكن هذه الخطوات لم يكتب لها الاستمرار طويلاً، وعاد سلطان الأدب القديم قوياً في النفوس، على حساب تلك الاتجاهات الجديدة، وإن لم يقض عليها نهائياً.

وبعد شعر التحامق وثيقة تاريخية تكشف عن كثير من جوانب الظلم والفساد اللذين أصابا المجتمع المملوكي، كما يعد وثيقة نفسية تفصح عن أحوال الشعراء والناس الذين استعلوا على واقعهم الفاسد بالسخرية منه ورفضه رفضاً نفسياً، بعد أن تعذر عليهم رفضه بالفعل. صحيح أن في هذه الأشعار مبالغات واضحة، لكن هذه المبالغات تخفي وراءها حقائق ثابتة، زاد الشعراء المتحامقون في تضخيمها ليلفتوا أنظار الحكام إليها، لعل أحدهم يمد لهؤلاء الشعراء يد المساعدة، فيصلح ما فسد، ويقوم ما اعوج.

لكن رواج هذا اللون من النظم عند العامة وغيرهم من نقاد ذلك الزمان يشير إلى تردي الذوق العام، ولا يحمل كثيراً من الأهمية للشعر من الناحية الفنية، وإن كان مضمونه مهماً ومؤثراً.

ومما يحمد للشعراء المتحامقين تجديدهم الواسع في بنية القصيدة، فألغوا مقدماتها حيناً، واستبدلوا بها مقدمات تصف فقرهم وسوء أحوالهم حيناً آخر، وحاولوا الاستقلال بالتحامق في القصيدة حيناً ثالثاً، لكن جميع محاولاتهم لم تكن قادرة على التصدي لتقاليد الشعر العربي الراسخة، ولا سيما المقدمات، والتغلب عليها، وإن كانت محاولاتهم جديرة بالاهتمام.



■ الحواشي:

- 1- طبقات الشعراء ابن المعتز: 341.
- 2- لسان العرب: ابن منظور، مادة حنق.
- 3- انظر الأغاني: الأصفهاني، 75/23-76.
- 4- المصدر نفسه: 85/23.
- 5- المصدر نفسه: 76/23.
- 6- شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني: 106-107.
- 7- الشعر الشعبي الساخر في عصور المماليك: النجار 82-83.
- 8- انظر النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي، 275/8.
- 9- انظر تاريخ مصر: ابن إياس، 919-929، 985، 996-998، 1283.
- 10- انظر فوات الوفيات: الكتبي، 139/1-140.
- 11- انظر سكرдан السلطان: ابن أبي حجلة، 401، النجوم الزاهرة: وابن تغري بردي، 102/10.
- 12- النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي، 52/8.
- 14- انظر فوات الوفيات: الكتبي، 358/3.
- 15- النيل على الروضتين: المقدسي، 225.
- 16- الوافي بالوفيات: الصفدي، 6/2، وانظر النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي، 68/11.
- 17- بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى: عاشور، 125.
- 18- انظر النهج السديد: ابن أبي الفضائل، 77، نيل مرآة الزمان: واليونيني، 498/1-499.
- 19- الشعر الشعبي الساخر: النجار، 853.
- 20- السلوك: المقرئ، 2 ق 3/696، وانظر فيه أيضاً: 3 ق 8/1.
- 21- النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي، 262/11.
- 22- تاريخ مصر: ابن إياس، 741-742، وانظر إغاثة الأمة: المقرئ، 37-38.

- 47- خيال الظل: حمادة، 219.
- 48- المغرب: 155/4: يُنَجِّش: يُنَبِّش. رُمة: خرقة أو عظمة بالية.
- 49- ديوان البوصيري: 117. وانظر فيه أيضاً: 189. فترة: تَوَان وتَأَخَّر. ضَجْرَة: من الضجر وهو الضيق والتَّبرُّم بالشئ. بَعْرَة: إشارة إلى التحقير والاستهانة به. مُحْتَرَّة: تنظر بحدة من شدة الغضب. آجرة: لبنة مجروقة معدة للبناء.
- 50- المصدر السابق: 189. التجريس: عقوبة من عقوبات الممالك "فكان الحكام إذا أرادوا التشهير بمنزب أركبوه ووجهه إلى ذيل الحمار، ويصيح الأطفال صيحات مناسبة، فإن كان لصاً جعلوه يمسك الحلي أو للنقود التي سرقها، وإذا كانت الجريمة زنى شهروه بكلمات تدل على عمله". قاموس العادات: أمين، 136-137. وكان الموكلون بهذا المنذب يحملون أجراساً بأيديهم يقرعونها لجذب انتباه الناس.
- 51- ديوان ابن نباتة: 457. وانظر فيه أيضاً: 531. الحكة: إناء معني يَطْهَى فيه الطعام.
- 52- المصدر السابق: 235. الكثير: جهاز من جلد أو نحود، يستخدمه الحداد وغيره للنفخ في النار.
- 53- ديوان صفى الدين الحلي: 625-626. صَوَّح: يبيس حتى تشقق. نَوَى: نذل.
- 54- فوات الوفيات: 329/1-330. القُطاعة: الرُّغوة. التبرّوات: جمع براوة، وهو ما يتبقى من قطعة الصابون بعد الاستعمال. الغز: قبيلة من الترك. المَرَقْدَار: مصطلح تركي معناه الذي يُغْنَى بشؤون المطبخ، وقد سمي بذلك لكثرة معاطاته لمروق الطعام وغيره. انظر صبح الأعشى: 5/470. زبّادي: جمع زُبْدِيَّة: وعاء من الخزف المحروق المطلي بالمينا، يختر فيها اللبن (المعجم الوسيط: مادة زبد). الوَقَاد: الذي يشعل النار في الحمام وغيره. خليع: قديم. كداد: بال، الأعواد: يريد بها عظام البرنوز الناحلة البارزة كالعيذان. الجلا: الضرب ومقارعة الخصوم.

- 23- انظر ديوان ابن الوردي: ابن الوردي، 197، 325، وانظر تنمة المختصر: 501/2.
- 24- انظر إغاثة الأمة: المقرئ: 43-44.
- 25- انظر تنمة المختصر: ابن الوردي، 487/2.
- 26- انظر معيد النعم: السبكي، 91. سَمَز: أغلق بالمسامير.
- 27- انظر، تنمة المختصر: 434/2.
- 28- إنباء الغمر بأبناء العمر: العسقلاني، 148/1.
- 29- الأدب في العصر المملوكي: زغلول، 105/2.
- 30- النجوم الزاهرة: 52/9.
- 31- ديوان البوصيري: 241.
- 32- النجوم الزاهرة: 369/7.
- 33- ديوان ابن نباتة: 400. وانظر خزائن الأدب: الحموي، 246.
- 34- ربحانة الألباء: الخفاجي، 422/1. البدال: استعمال عامي معناه أن يتبادل رجلان امرأتيهما حراماً.
- 35- نصره الثائر: الصفدي، 331.
- 36- ديوان ابن الوردي: 302. وانظر فيه أيضاً: 240.
- 37- خزائن الأدب: 252. وانظر فيه أيضاً: 249.
- 38، 39- المغرب ابن سعيد، 135/4. حرافاً: انحرافاً.
- 40- ابن دقيق حياته وديوانه: 181. هامياً: سائلاً ونازلاً.
- 41، 42- نيل مرآة الزمان: 19/3. المئين: الكذب.
- 43- السلوك: 1 ق 904/3. والبيتان لعلاء الدين الوداعي.
- 44- الغيث المسجّم: الصفدي، 29/2. والبيتان لسراج الدين الوراق. وفي كلمة (الراحة) الثانية تورية يريد بها راحة اليد.
- 45- فوات الوفيات: الكتبي، 289/4.
- 46- الوافي بالوفيات: الصفدي، 52/3.

- 69- البداية والنهاية: ابن كثير، 315/13.
- 70- فوات الوفيات: 337/3. أصطلي: استندى.
الآل: السراب. ضروب: كذا في الأصل، ولعل
الصواب: ضروس أي شديد مهلك. العتار:
اللص المحتال. القار: الزفت. الخومة من
القتال: أشد موضع فيه. الأزيار: جمع زير:
جرة كبيرة يوضع فيها الماء. النكة: مقعد
مستطيل من خشب غالباً يجلس عليه. البنيطار:
معالج الدواب.
- 71- الغيث المسجم: 152/1.
- 72، 73- خزنة الألب: 244.
- 74- الوافي بالوفيات: 227/1.
- 75- ديوان ابن نباتة: 79.
- 76- فوات الوفيات: 129. والبيتان للشاعر شهاب
الدين بن غانم (737هـ-).
- 77- ديوان ابن نباتة: 287.
- 78- المغرب: 130-130/4. خلعة: ثوب يهدى.
الطيلسان: "ضرب من الأوشحة، وليس على
الكشف أو يحيط بالبن، خال من التفصيل
والخياطة، أو هو ما يعرف بالعمامة المصرية
بالشال". المعجم الوسيط: مادة طلس.
- 7- المغرب: 141/4.
- 80- المصدر نفسه: 155/4.
- 81- ديوان البوصيري: 117.
- 82- النقد الأدبي في القرن الثامن الهجري: سلطاني،
186.
- 83- خيال الظل: حمادة، 34. وانظر فوات الوفيات:
الكتبي، 219/4.
- 84- خيال الظل: 41. النطم: بساط من جلد، كثيراً ما
يُقفل فوقه المحكوم عليه بالقتل.
- 85- مطالع البور: الغزولي، 192/2.
- 86- الغيث المسجم: 88/1. وانظر خزنة الألب: 66.
- 87- ديوان البوصيري: 117. وانظر فيه أيضاً: 83.
- 88- فوات الوفيات: 290/4. وانظر فيه أيضاً: 1/
- الجفون: جمع جفن: غمد السيف ونحوه. اللبث:
السقاء. الكشخان: الثيوت أو القرنان. بتيكار:
ميدان القتال بالتركية. خيزي: مصطلح مملوكي
معناه راتب.
- 55- الغيث المسجم: 1 الصفدي، 106/1. غنا: غناء،
فنا: فناء.
- 56- المغرب: 134-135/4. كُنت: ضَعُفْتُ وتعبتُ.
- 57- الفلاكة والمفلوكون: الدلجي، 167. الفلاكة: هي
الفقر والإهمال. المفلوكون: جمع مفلوك، وهو
الفقير المهمل بين الناس لقلّة حظه وفقره.
- 58- تاريخ مصر: ابن ياس، 89.
- 59- المواعظ والاعتبار: المقرئ، 22/2.
- 60- الفلاكة والمفلوكون: 168.
- 61- ديوان ابن الوردي: 256. وانظر فيه أيضاً:
310.
- 62- فوات الوفيات: 289/4.
- 63- المصدر السابق: 292/4. وانظر المغرب: 4/4
156. غلابي: (بالغين المعجمة) كذا في
الأصل، ولعل الصواب (علابي) بالعين المهملة.
وهو الذي يضع الحلوى في العلب ليبيعيها.
- 64- ديوان ابن نباتة: 80. وانظر فيه أيضاً: 19،
282، 335. غتا: جاوز الحد.
- 65- ديوان امرئ القيس: 8.
- 66- المصدر السابق: 27.
- 67- نيل مرآة الزمان: 71/4. وانظر معارضة
أخرى للشاعر نفسه في الغيث المسجم: 251/2.
نراعة: جبة من صوف مشقوقة المقدم. القياسر:
الخان أو المكان الواسع يكون للخيول والناس
والمؤن. توضيح والمقراة: موضعان ذكرهما
امرؤ القيس في معلقته: فرجبة: ثوب واسع
طويل الأكمام يتزيا به علماء الدين: المؤنل:
الأصيل.
- 68- ديوان صفى الدين الحلبي: 625-626. الكبس:
الهجوم على الشخص والإحاطة به. النكس:
طأطأة الرأس أو العيوس.

خزانة الأدب وغاية الأدب، الطبعة الأولى، طبع
المطبعة الخيرية، القاهرة.

9- الخفاجي أحمد بن محمد، (1967)، ربحانة الألبا
وزهرة الحياة الدنيا، الطبعة الأولى، تحقيق عبد
الفتاح محمد الحلو، طبع مطبعة مصطفى البابي
الحلي، القاهرة، جزءان.

10- ابن دقيق محمد بن علي، (1960)، ابن دقيق
العبد حياته وديوانه، الطبعة الأولى، تحقيق علي
صافي حسين، طبع دار المعارف، القاهرة.

11- الدلجي أحمد بن علي، (1385)، الفلاحة
والمفلوكون، الطبعة الأولى، طبع مطبعة
الأداب، النجف، العراق.

12- سبط بن الجوزي يوسف بن قزا أوغلي، (1370)
(، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، الطبعة
الأولى، طبع مطبعة مجلس دائرة المعارف
العثمانية بالهند، ثمانية أجزاء.

13- السبكي عبد الوهاب بن علي، معبد النعم ومبيد
النقم، الطبعة الأولى، طبع المطبعة الأدبية،
مصر، مطبوع على هامش كتاب تفريج المهج
بتلويح الفرّج.

14- ابن سعيد علي بن موسى، المغرب في حلى
المغرب، الطبعة الأولى، تحقيق كنوت تيكوست،
طبع مطبعة لين.

15- الصفي صلاح الدين خليل بن أبيك،
(1305)، الغيث في شرح لامية العجم، الطبعة
الأولى، طبع المطبعة الأزهرية، القاهرة،

(1961)، الوافي بالوفيات، تحقيق مجموعة من
المحققين بإشراف هلموت ريتز، عدة أجزاء.

(1971)، نصرة الشاعر على المثل السائر، الطبعة
الأولى، تحقيق محمد علي سلطاني، طبع
مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق.

16- العسقلاني أحمد بن حجر، (1399)، إنباء الغمر
بأبناء العمر، تحقيق محمد أحمد دهمان، دمشق.

17- الغزولي علي بن عبد الله، (1299)، مطالع
البدر في منازل السرور، الطبعة الأولى، طبع

329-330.

89- الحموي، خزانة الأدب: 239.

90- فوات الوفيات: 335/3.

91- المعجم الوسيط، مادة: عرس.

92- خزانة الأدب: 252.

93- ديوان ابن نباتة: 357. وانظر فيه أيضاً: 80.

فهرس المصادر والمراجع

أولاً: المصادر:

1- الأصفهاني أبو الفرج: الأغاني، الطبعة الثامنة،
تحقيق لجنة من الأدباء بإشراف عبد الستار
أحمد فراج، طبع دار الثقافة، بيروت، خمسة
وعشرون جزءاً.

2- امرؤ القيس حندج بن حجر، (1964)، ديوان
امرئ القيس، الطبعة الثانية، تحقيق محمد أبو
الفضل إبراهيم، طبع دار المعارف، مصر،
سلسلة ذخائر العرب (24).

3- ابن ياس محمد بن أحمد، (1311)، تاريخ مصر
المشهور ببدايع الزهور في وقائع الدهور،
الطبعة الأولى، طبع المطبعة الأميرية، بولاق،
القاهرة، ثلاثة أجزاء.

4- البوصيري محمد بن سعيد، (1955)، ديوان
البوصيري، الطبعة الأولى، تحقيق محمد سيد
الكيلاني، طبع مطبعة مصطفى البابي الحلبي،
القاهرة.

5- ابن تغري بردي يوسف، (1972)، النجوم الزاهرة
في ملوك مصر والقاهرة، الطبعة الأولى، طبع
دار الكتب المصرية، القاهرة، ستة عشر جزءاً.

6- ابن أبي حجة أحمد بن يحيى، (1957)، سكردان
السلطان، الطبعة الثانية، طبع مطبعة مصطفى
البابي الحلبي، القاهرة.

7- الحلبي صفي الدين عبد العزيز بن سرايا، ديوان
صفي الدين الحلبي، طبع دار صادر، بيروت.

8- الحموي بن حجة أبو بكر بن علي، (1304)،

مطبعة إدارة الوطن، مصر، جزءان.

18- ابن أبي الفضائل المفضل، النهج السديد والدر
الفرید فیما بعد تاریخ ابن العمید، تحقیق
بلوشت.

19- القلقشندي أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، الطبعة الأولى، طبع وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، ثمانية عشر جزءاً.

20- ابن كثير إسماعيل بن عمر، (1358)، البداية والنهاية في التاريخ، الطبعة الأولى، طبع مطبعة السعادة، القاهرة، أربعة عشر جزءاً.

21- مجمع اللغة العربية بالقاهرة، (1973)، المعجم الوسيط، الطبعة الثانية، بإشراف حسن علي عطية ومحمد شوقي أمين، طبع دار المعارف بمصر، جزءان.

22-المقسسي أبو شامة عبد الرحمن بن إسماعيل، (1974)، تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين، الطبعة الثانية، مراجعة محمد زاهد الكوثري، طبع دار الجيل، بيروت.

23-المقریزی أحمد بن علی،

-(1270)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
المعروف بالخطط المقرئية، الطبعة الأولى،
طبع مكتبة المشي، بغداد، جزءان.

الأولى، تحقيق محمد مصطفى زيادة، طبع دار الكتب المصرية، أربعة أجزاء.

-(1940)، إغاثة الأمة بكشف الغمة، الطبعة الأولى،
تحقيق محمد مصطفى زيادة وجمال الدين
الشيال، طبع مطبعة لجنة التأليف والترجمة
والنشر، القاهرة.

24- ابن منظور محمد بن مكرم، (1980)، لسان العرب، الطبعة الأولى، طبع دار المعارف، القاهرة، عشرة أجزاء.

25- ابن نباتة محمد بن محمد، ديوان ابن نباتة، تحقيق عبد العزيز قنقلية، مصر.

26-الهذاني ببيع الزمان أحمد بن الحسين، (1962)
(، شرح مقامات ببيع الزمان الهذاني، تحقيق
محمد محيي الدين عبد الحميد، طبع مطبعة
المنني، القاهرة.

27-ابن الوردي زين الدين عمر بن مظفر،

-(1970)، تَمَّة المَخْتَصَر في أخبار البشر (تاريخ ابن السوردي)، الطبعة الأولى، تحقيق أحمد رفعت البدرأوي، نشر دار المعرفة، بيروت، جزءان.

-(1300)، ديوان ابن الوردي، الطبعة الأولى، طبع
مطبعة الجوائب، القسطنطينية، تركية.

28-اليونيني موسى بن محمد، (1954)، ذيل مرآة الزمان، الطبعة الأولى، طبع مجلس دائرة المعارف العثمانية، الهند، أربعة أجزاء.

■ ثانياً: المراجع:

1- أمين أحمد، (1953)، قاموس العادات والتقاليد والتعبيرات المصرية، الطبعة الأولى، طبع مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة.

2- حمادة إبراهيم، (1936)، خيال الظل وتمثيلات ابن داننيل، طبع مطبعة مصر.

3-سلطاني محمد علي، (1973)، النقد الأدبي في القرن الثامن الهجري بين الصفي ومعاصريه، الطبعة الأولى، طبع مطبعة الحجاز، دمشق.

4- عاشور سعيد عبد الفتاح، (1977)، بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، الطبعة الأولى، طبع في جامعة بيروت العربية.

5- السنجار محمد رجب، (1982)، الشعر الشعبي الساخر في عصور المماليك، مقال منشور في مجلة عالم الفكر، المجلد الثالث عشر، العدد الثالث، الكويت.